

النبي

جبران خليل جبران

النبي

تأليف: جبران خليل جبران

ناشر: ikitab

المقدمة

صفحة رقم 1

المصطفى المختار الحبيب ، كان فجرا لزمانه ، ظل اثنتي عشرة سنة بمدينة

أورفليس يتربص سفينته ، وكانت إلى عودة ، لترجع به إلى الجزيرة التي شهدت مولده .

وفي السنة الثانية عشرة ، في السابع من أيلول (سبتمبر) ، شهر الحصاد ، ارتقى المصطفى التل

فيما وراء أسوار المدينة ، ورمى ببصره إلى البحر ، فلمح

سفينته تأتي مع الغمام ، وهنا انفرج شغاف قلبه ، وطارت فرحته بعيدا حتى

رقّت على البحر ، وأطبق المصطفى عينيه يردد الصلوات في محراب

السكون من روحه .

وحين هبط التل لفته غمامة حزن فراح يحدث نفسه : أني لي أن أمضي

مطمئنا خالي البال من الأشجان ؟ لن أبرح هذه المدينة إلا وفي الروح جروح .

طويلة كانت أيام أساي بين أسوارها ، وطويلة كانت ليالي وحدتي فيها ؛ ومن ذا

يستطيع أن يفصل عن أساء ووحدته غير آسف ؟

صفحة رقم 2

كم من حبات للروح نثرت في هذه الطرقات ، وكم من أطياف ولدها حنيني تجري عارية بين تلالها ؛
فلا أستطيع أن أنشق عنها إلا بأثقال وأوجاع .

وليس ما أنزعه اليوم ثوبا ، بل جلدي أمزقه بيدي هاتين .

ولست أنزع فكرة أخلفها ورائي ، بل هو قلب رق بالجوع والظماً .

على أنه ليس لي أن أطيل البقاء فالبحر الذي يهتف بكل الكائنات إليه بهتف

أن أقبل ولا مفر من نشر الشراع فإن بقيت جمدت وتبلورت واحتواني قالب

برغم ليل لهاب يُحرق الساعات . ليتني أستطيع أن أصطحب معي كل

ما حولي هنا . لكن ما السبيل ؟

الصوت حين ينطلق لا يحمل معه جناحيه لسانه وشفته ، لكنه يمضي وحيدا ينشر الأثير . كذلك

النسر ، وحبذا ينطلق بلا وكره ، بروم الشمس .

صفحة رقم 3

والآن ، حين بلغ المصطفى سفح التل استدار يستقبل البحر ثانية ، فشاهد سفينته

تقترب من المياء ، وفي مقدمتها ملاحون من وطنه ، فهتف بهم من الأعماق :

أبناء أُمي الأُزلية ، يا فرسان الموج ، ما أكثر ما أبحرتم في أحلامي .

وأنت الآن تفدون في يقظتي ، وهي أعمق أحلامي .

هأنذا على أهبة الرحيل ، وقد أطلقت لهفتي شراعها كاملا ترتقب الريح .

لم يعد لي سوى نسمة واحدة أنتسمها في هذا الجو الساكن ؛ لم يعد لي

غير نظرة حُب واحدة ألقبها على ما كان ؛ ثم أنتظم في صفوفكم ملاحا بين ملاحين .

وأنت أيها البحر الفسيح ، بل الأم الهاجعة ، يا من في صدرك وحدك يجد النهر والجدول السلام والحرية .

صفحة رقم 4

ما هي إلا انتشاءة أخرى فحسب لهذا الجدول ،

ثم ما هي إلا همسة واحدة في هذه الغابة ، حتى آتي إليك قطرة

طليقة في محيط غير محدود .

* * *

وبينما هو ماض في طريقه ، إذا أنس على البعد رجالا ونساء قد تركوا حقولهم وكرومهم مسرعين

نحو أبواب المدينة .

سمع أصواتهم تنادي امسه ، وتتجاوب من حقل إلى حقل ، معلنة مقدم سفينته .

* * *

فراح يحدث نفسه :

ترى هل يكون يوم الفراق هو بعينه يوم التلاقي ؟ وهل يقال إن ساعة غروبي كانت في الحق ساعة مطلعي ؟

وماذا أنا معطي من ترك محرائه في إبان الحرث ، أو من أوقف عجلة معصرته ؟

صفحة رقم 5

ألقبي أن يصير شجرة حافلة بالثمار ؛ كيما أقطف منها لهم وأعطي ؟

وهل نتدفق أمانى كالمناهل ، كيما أنزع كؤوسهم ؟

ليتني كنت قيثارة فتمسني يد العلى القدير ، أو مزمار حتى تتساب خلالي أنفاسه ؟ وإنما أنا ساع إلى السكينة . ترى أي كنز لقيت في ظلها ، فأنثره في ثقة واطمئنان ؟

إذا كان اليوم يوم حصادي ، ففي أي الحقول قد نثرت بذوري ، وفي أية فصول غابت عن الآن ذكرها ؟

إن كانت هذه هي حتما اللحظة التي أرفع فيها مصباحي ، فلن تكون الشُّعلة التي ستضيء فيه هي شعلتي ، ولسوف أرفع مصباحي خاليا مُظلما .

وإن من يحرسكم بالليل سوف يملؤه بالزيت ، وسوف يوقده لكم .

* * *

هذه أمور عبّر عنها المصطفى بالكلمة ، وظل الكثير

صفحة رقم 6

في قلبه مكنونا ، لم يستطع حتى هو أن يبوح بسرهِ العميق .

* * *

ولما دخل المدينة خفَّ إلى لقائه كل أهلها هاتفين باسمه باسمه ، كأنهم يهتفون بصوت واحد .

وتقدم الشيوخ وقالوا :

لا تُعجل بالرحيل عنا .

لقد سطعت في غسق حياتنا كالشمس في رائعة النهار ، وأمدنا شبابك بأحلام نحلمها .

لست بينا ضيفا ولا غريبا ، بل أنت ولدنا الحبيب عشقته أرواحنا ؛ فلا تترك أبصارنا منذ الآن

عطشى إلى ملامح وجهك .

* * *

وانبرى الكهنة والكاهنات له بقولهم :

لا تدع أمواج البحر تفرق بيننا الآن ، ولا تجعل السنين التي قضيتها بين ظهرانينا تؤول إلى ذكرى ؛

صفحة رقم 7

فقد طفت بنا روحا ، وكان ظلك لنا نورا يشيع وجوهنا .

فلشد ما أحببناك حبا صامتا مصونا وراء قناع ، ولكنه يهتف بك الآن عاليا ، يتمنى لو يقف سافرا

بين يديك .

وهكذا الحب أبدا لا يعرف ما له من غور إلا ساعة الفراق .

* * *

وجاء قوم آخرون يتوسلون إليه ألا يفارقهم ، غير أن المصطفى لزم الصمت ثم أطرق ، ورأى الواقفون إلى جواره عبرات تسيل على صدره .

ومضى ومضى القوم معه إلى الساحة الكبرى فُدام المعبد .

* * *

ومن كنف الهيكل طلعت عليهم امرأة عرافة تدعى " المطرا " .

فنظر إليها نظرة تجيش بالحنان ؛ إذ كانت أول من

صفحة رقم 8

سعى إليه وصدق به ولما يمض على وصوله إلى المدينة غير يوم واحد . وأهلت به المرأة مرحبة وقالت :

يا نبي الله ، يا من سعى وراء أسمى الغايات ، يا من ظل يتطلع إلى الآفاق بحثا عن سفينته .

ها هي ذي قد آبت ، وأصبح رحيلك أمرا محتوما .

ألا ما أعظم حنينك إلى مهد ذكرياتك ، ومواطن رغباتك . حبنا لن يقيدك ، وحاجتنا لن تستوقفك ،

غير أنا سائلوك قبل أن ترحل عنا أن تتحدث إلينا ، فتزودنا مما عندك من الحق ،

وسنزوده أبناءنا من بعدنا ، وسيزودونه هم أبناءهم من بعدهم ، ولن يبيد .

في وحدتك كنت موصولا بأيامنا ، وفي يقظتك كنت تستمع إلى ما يتخلل هجعتنا من بكاء وضحك .

والآن نضرع إليك أن تكشف لنا عن خبايا

صفحة رقم 9

نفوسنا ، وتطلعنا بما أوتيت من علم على ما يقوم بين الحياة والممات .

* * *

فأجابهم المصطفى : " يا أهل أورفاليس ، هل أنا محدثكم إلا بما يدور الآن في أحناء سرائركم "

صفحة رقم 10

وانبرت " ألمطرا " وقالت له : حدثنا عن

الحب

رفع المصطفى رأسه مشرفا على القوم فغشيهم السكون ، وفي صوت عريض قال :

إذا أوماً الحب إليكم فاتبعون ، وإن كان وعر المسالك ، زلق المنحدر .

وإذا بسط عليكم جناحيه فأسلموا له القياد ، وإن جرحكم سيفه المستور بين قوادمه .

وإذا حدثكم فصدقون ، إن كان لصوته أن يعصف بأحلامكم كما تعصف ريح الشمال بالبستان .

* * *

إن الحب إذ يكلل هاماتكم ، فكذاك يشدكم على الصليب .
وهو كما يشد من عودكم ، كذلك يُشذب منكم الأغصان .

صفحة رقم 11

وكما يرتقي إلى قنن هاماتكم ويداعب أغصانكم الغضة تميز في ضوء الشمس ، كذلك يهبط إلى جذورك العالقة بالأرض فيهبها هذا .

* * *

ويضمكم إلى أحضانه كما يضم حزمة قمح ، فيدرسكم لكي يعريكم ، ثم يغربلكم فيخلصكم من القشور ، ثم يطحنكم فيحيلكم دقيقا أبيض ، ثم يعجنكم ليسلس قيادكم ، ثم يُسلمكم إلى نار هيكله المقدسة ، على أن تصيروا الخبز المقدس لمائدة الرب المقدسة .

* * *

كل هذا يفعله الحب بكم كي تعرفوا أسرار قلوبكم ، وبهذه المعرفة تصبحون فلذة من قلب الوجود .

صفحة رقم 12

أما إذا دب فيكم الخوف فلم تتشدوا في الحب إلا الدعة والمتعة .
فأولى بكم أن تستروا عُريكم ، وتغادروا بيدر المحبة إلى عالم لا تتعاقب فيه فصول ،

حيث تضحكون ولكن دون استغراق ، وتبكون ولا تنهمر كل الدموع .

* * *

فالحب لا يُعطى إلا ذاته ، ولا يأخذ إلا من ذاته . والحب لا يملك ، ولا يملكه أحد ؛ فالحب حسبه أنه الحب .

* * *

إذا أحببت ، فلا تقل : " لقد وسع قلبي الله " .

بل قل " وسعني قلب الله " .

ولا تظن أنك قادر على توجيه مسرى الحب ؛ فإنما الحب يقودك إن وجدك خليقا به .

صفحة رقم 13

الحب لا ينشد إلا تحقيق ذاته ، فإذا أحببت ولم يكن بد من أن تساورك رغبات ، فلتكن هذه رغباتك :
أن تذوب حتى تصبح كالغدير المنساب ، يشدو لليل بألحانه ؛ وأن تحس الألم النابع من فيض حنان دافق ؛ وأن تتقبل الجرح ينتابك من إحاطة ذاتك لمعنى الحب ؛ وأن تبذل دمك عن رضا وابتهاج ؛
وأن تنهض مع الفجر بقلب مجنح ؛ لتستقبل شاكرا يوما في الحب جديدا ؛ وأن تقيل مع الظهيرة ، مستغرقا في نشوة الحب ؛ وأن تعود مع الأصيل إلى مأواك يمور صدرك بالامتنان ، ثم تخلد إلى النوم ، وقلبك يسبح بمن تهوى ، وشفتك تتمتان بأنشودة الحمد .

واستأنفت المطرا حديثها : وما قولك ، أيها المعلم في

الزواج

فأجاب قائلاً : لقد ولدتما معا ، ومعا تظلان إلى الأبد ، ومعا تكونان ، حينما تذهب بأيامكما أجنحة الموت الشهباء . أجل كذلك تظلان معا ، في سر الله المكنون .

ولكن ، فليتخلل التئامكما فُسحات ؛ حتى تُثيحا لرياح السماوات أن ترقص بينكما .

* * *

ليحب أحكما الآخر ، ولكن لا تجعلا من الحب قيداً ، بل اجعلاه بحراً متفقاً بين شواطئ أرواحكما .
وليملاً أحكما كأس رفيقه ، وحذار أن تشربا من كأس واحدة .

وليعط أحكما الآخر من خُبزه ، وحذار أن تجتمعا على رغيغ واحد .
غنيا وارقصا وامرحا معا ، ولكن ليخل كلٌ إلى شأنه ؛ فإن أوتار القيثارة
مشدودة على افتراق ، وإن خفقت جميعا بلحن واحد .

* * *

وليهب كل منكم قلبه لعشيرته ، لكن دون أن يستأثر به ، فليد الحياة وحدها أن تسع قلوبكما .

ولتتهضا متكافلين ، لكن دون أن تتلاصقا ؛ فإن أعمدة المعبد على انفصال تقوم ، والسنديان والسرور لا ينمو بعضهما في ظل بعض .

صفحة رقم 16

وقالت امرأة تضم رضيعها إلى صدرها : ألا حدثنا عن

الأطفال

فقال المصطفى : إن أطفالكم ما هم بأطفالكم ، فلقد ولد لهم شوق الحياة إلى ذاتها ، بكم يخرجون إلى الحياة ، ولكن ليس منكم وإن عاشوا في كنفكم فما هم ملككم .

* * *

قد تمنحونهم حبكم ولكن دون أفكاركم ، فلهم أفكارهم . ولقد تتوون أجسادهم لا أرواحهم ؛ فأرواحهم تسكن في دار الغد ، وهيهات أن تلموا به ، ولو في خطرات أحلامكم . وفي وسعكم السعي لتكونوا مثلهم ، ولكن لا تحاولوا أن تجعلوهم مثلكم ؛

صفحة رقم 17

فالحياة لا تعود القهقري ، ولا تتمهل عند الأمس .

أنتم الأقواس ، منها ينطلق أبناؤكم سهاماً حية .

والرامي يرى الهدف قائما على طريق اللانهاية ، ويشدكم بقدرته حتى تنطلق سهامه سريعة إلى أبعد مدى .

وليكن انحنائكم في يد الرامي عن رضا وطيب نفس ؛ لأنه كما يحب السهم الطائر ، كذلك يحب القوس الثابتة .

صفحة رقم 18

وهنا قال رجل ثري : حدثنا عن

العطاء

أجاب المصطفى : إنك لتعطي القليل حين تعطي مما تملك ، فإذا أعطيت من ذاتك أعطيت حقا . وهل تملك سوى أشياء ترعاها وتحرسها خشية أن تحتاج إليها في غدك ؟ ذلك الغد ، ما تراه يدخر لكلب شديد الحرص يدفن العظام في الرمال المهجورة ، وهو يتبع الحجاج إلى المدينة المقدسة . وهل الخوف من الحاجة إلا الحاجة ذاتها ؟ أليست خشية الظمأ ، وبئرك ملأى ، وهو العطش ، لا تُروى له غلة ؟

* * *

بعض الناس يعطي القليل مما عنده من كثير . أولئك يعطون تباهايا بالعطاء ، فتذهب نياتهم المستورة بطيبات عطاياهم .

صفحة رقم 19

وبعضهم لا يملك إلا القليل فيجود به كله .

أولئك هم المؤمنون بالحياة وما فيها من خير ، فلا تفرغ خزائهم أبدا .

وبعضهم يعطى فرحا ، وفرحته جزاؤه ، أويعطى مكابدا ، وفي مكابدته تطهير له .

وبعضهم يعطى ولا يحس مكابدة ، ولا يلتبس فرحا ، لا يدري أن العطاء فضيلة .

أولئك يعطون كأنهم ريحان الوادي يبث عطره في الفضاء . وعلى فيض أمثال هؤلاء تتجلى كلمة

الله ، ومن خلال عيونهم تشرق بسماته على الأرض .

* * *

جميل أن تعطى من يسألك ، وأجمل منه أن تعطي من لا يسألك وقد أدركت عوزه ؛ فالسعي إلى من

يتقبل العطاء هو للجواد المعطاء متعة تتجاوز العطاء ذاته .

صفحة رقم 20

وهل تستطيع حقا أن تقبض يدك على شيء مما تملك ؟

ليأتين يوم كل ما لك فيه سوف يعطى ؛ فأعط الآن يكن لك موسم العطاء ، لا لمن يريثك .

* * *

ما أكثر ما تقول : " لتصبون نفسي إلى العطاء ، ولكن لا أعطي إلا من يستحق " . وليس ذلك قول

الأشجار في بستانك ، ولا القطعان في مرعاك .

إنها تعطى لتحيا ؛ لأن الامتناع عن العطاء سبيل الفناء . لا ريب أن من استحق أن ينال أيام عمره

ولياليه ، لجديره بأن ينال سواها منك ،

وأن من استحق أن ينهل من محيط الحياة ، لجدير بأن يملأ كأسه من جدولك الصغير .
وأي جزاء يعلو على جزاء من يتقبل العطاء في شجاعة وثقة ، بل وفي محبة وسماحة ؟
ومن تكون أنت حتى يكشف الناس لك عن خبيئة

صفحة رقم 21

صدروهم ويلقوا عنهم رداء الكبرياء ؛ فترى منهم أقدارا عارية وعزة مبذولة ؟
فانظر أولا : أجدير أنت بأن تتركى ، وأن تكون للعطاء أداة ؟ فالحق أن الحياة هي التي تُعطى
الحياة ، ولست أنت ، يا من تظن أنك معط ، سوى شاهد .

* * *

وأنتم يا من تأخذون وكلكم آخذ لا تسرفوا في الامتتان ، وإلا وضعتن نيرا على كواهلكن وكاهل من
أعطى .

بل أولى بكن أن تمتطوا عطايا المحسن وكأنها أجنحية لتعرجوا معه إلى مراقي الذرى .
ولئن استبد بكن الشعور بأن الدين عليكم فادح ، فذلك شك في كرم من يعطى ، في حين أن الأرض
السمحاء أمه والرب أبوه

* * *

صفحة رقم 22

وهنا انبرى شيخ صاحب نُزُل فقال : حدثنا عن

المأكل والمشرب

قال المصطفى :

ليتكم تستطيعون أن تحيوا على عبير الأرض ، مثلما يحيا النَّبات المتمدد على الضوء .
فإذا لم يلك بد من أن تقتلوا لتسدوا جوعكم ، وأن تسلبوا لبن الأم من رضيعها لتطفئوا ظمأكم ،
فلتجعلوا ما تعملون إذا طقسا من طقوس العبادة .
ولتكن مائدتكم مذبحا يُضحى عليه كل ما هو نقي بريء وافد من السهل والغاب ، في سبيل ما هو
في الإنسان أطهر وأبرأ .

* * *

وحين تتحر ذبيحتك ناجها في سريرتك قائلا :

" إن القدرة التي تذبحك هي نفسها تذبحني ؛ وأنا مثلك مصيري الفناء .
فإن الناموس الذي أسلمك إلى يدي سوف يسلمني إلى يد أشد بأسا .

صفحة رقم 23

وما دمي ودمك إلا العصير يغذو شجرة الخلد " .

* * *

وحين تقضم التفاحة بين أسنانك ، ناجها قائلا : " لسوف تحيا بذورك في جسدي ، وتزهر براعم
غذك في قلبي ، ويصبح عبير أنفاسي ؛ ومعا نبتهج على مر الفصول " .

* * *

وفي الخريف متى أخذت في جمع العنب من كرمك لتلقى به إلى المعصرة ، ناهه قائلًا :
" أنا أيضا كرمه ثمارها إلى جنى ماله المعصرة ، وكالخمرة الجديدة سأحفظ في قناتي الخلود " .
وفي الشتاء حين ترتشف الخمر ، أدر في قلبك لكل كأس أغنية ،

* * *

صفحة رقم 24

واجعل في الأغنية ذكرى للخريف ، وأخرى للكرمة ، وللمعصرة .

صفحة رقم 25

قال فلاح : حدثنا عن

العمل

قال المصطفى :

أنت تعمل كي تلاحق الأرض وتقارب سرها . فمن تواني صار غريبا عن مواقيتها ، خارجا عن
موكب الحياة ، وهو يمضي في جلال وقور وامتنال شامخ نحو الخلود .

* * *

أنت حين تعمل مزمار ، تتحول همسات الدهر في جوفه إلى أنغام .

من منكم يود لو يصبح قصبة خرساء بكماء ، على حين تغنى الكائنات حوله في توحد وتآلف
وما أكثر ما سمعتهم أن العمل لعنة على العاملين ، وأن الكد عثرة حظ .

وعندي أنكم حين تعملون ، تحققون للأرض بعض حلمها المترامي الذي كتب عليكم يوم ولد

صفحة رقم 26

وحين تمضون في العمل تمارسون في الحق حب الحياة ، وحب الحياة عن طريق العمل يتوغل بكم
إلى أعماق أسرار الحياة .

أما إذا خلتم ساعة تضيقون بالحياة فتألمون أن مولدكم بلاء ، وأن تلبية مطالب الجسد لعنة سطرت
علنا الجبين ، فإني أقول لكم : هيهات أن يمحو ما سطر على الجبين إلا حبات العرق .

* * *

ولقد نبئتم أيضا أن الحياة ظلام ، حتى أصبحتم ترددون من فرط الإنهاك ما يقوله المنهكون
ولعمري إن الحياة ظلام إلا إذا صاحبها الحافز ، وكل حافز ضرير إلا إذا اقترن بالمعرفة ، وكل
معرفة هباء ، إلا إذا رافقها العمل ، وكل عمل خواء ، إلا إذا امتزج بالحب ؛

صفحة رقم 27

فإذا امتزج عملك بالحب فقد وصلت نفسك بنفسك ، وبالناس وبالله .

* * *

وما يكون العمل الممزوج بالحب ؟ هو أن تتسج الثوب بخيوط مسلولة من قلبك ، كما لو كان هذا الثوب سيرتديه من تحب .

هو أن تبني دارا والمحبة رائدك ، كما لو كانت هذه الدار ستضم من تحب .

هو أن تنتشر البذور في حنان ، وتجمع حصادك مبتهجا ، كما لو كانت الثمار سيأكلها من تحب .

هو أن تنفح كل ما تصنعه يداك بنسمة من روحك ، وأن تدرك أن كل الراحلين المباركين ملتقون حولك يراقبون .

وما أكثر ما سمعتم تقولون ، وكأن القول حديث منام ؛ " إن المثال الذي يشكل الرخام ، ويسوي الحجر على صورته لأسمى شأننا ممن يحرث الأرض .

صفحة رقم 28

" وإن الرسام الذي يلتقط ألوان قوس قزح ويسوي منها على لوحته ملامح الإنسان لأعظم قدرا ممن يصنع النعال لأقدامنا " .

أما أنا فأقولها في كامل يقظتي ، في رائعة النهار : إن الرياح لا تُسر إلى السنديانة الضخمة بهمسات أرق من تلك التي تسر بها إلى أهون حشائش الأرض .

إنما العظيم من يرد صوت الرياح أغنية ، يزيد لها حبه عذوبة .

* * *

العمل حب تجسم للعيون . فإذا كنت تعمل كارها وحليفك النفور لا الحب ، فخير لك أن تهجر
العمل ، فتتعد على باب المعبد تتلقى الصدقات ممن يعملون مبتهجين ؛ لأنك إذا خبزت العيش
سادرا فأنت إذا تهیی خبزا مرا ، لا يسد من جوع الإنسان إلا بعضه .
وإذا أنت عصرت الكرم متبرما ، فسوف يتقاطر تبرمك في الخمر سما .

* * *

صفحة رقم 29

وإذا شدوت ولو شدوا الملائكة دون أن تحب ما تشدو ، فأنت إذا تصد صوت النهار وصوت الليل
عن آذان البشر ، بما تصبه فيها من وقر .

صفحة رقم 30

وهناك قالت امرأة : حدثنا عن

الفرح والحزن

قال المصطفى : إنما فرحكم حزنكم رفع عن وجهه القناع . وما أكثر ما تمتلئ البئر التي تستقون
منها ضحكاتكم بفيض دموعكم . وكيف يكون الأمر غير ذلك ؟

فعلى قدر ما يغوص الحزن في أعماقكم يزيد ما تستوعبون من فرح . أليست الكأس التي تحمل
خمركم هي الكأس التي احترقت في أتون الفخاري ؟ وأليست القيثارة التي تسكن لها نفوسكم هي
هي قطعة الخشب التي حفرتها سكين ؟ حين يستخفك الفرج ، راجع إلى أعماق قلبك ، فترى أنك في
الحقيقة تفرح بما كان يوما مصدر حزنك . وحين يغمرك الحزن تأمل قلبك من جديد ،

صفحة رقم 31

فسترى أنك في الحقيقة تبكي مما كان يوما مصدر بهجتك .

* * *

يقول بعض الناس : " الفرح أسمى من الحزن " . ويقول آخرون " إنما الحزن أسمى " .

ولكني أقول لكم إنهما لا ينفصلان . معا يقبلان ، وإذا انفرد أحدهما بك على المائدة فاذا أن الآخر يرقد في فراشك .

* * *

ولعمري إنكم لمعلقون مثل كفتي الميزان بين أحزانكم وأفراحكم .

ويوم تفرغ منكم النفوس تثبت حالكم ؛ إذ تتساوى الكفتان .

وحين تترك يد الوزن الأعلى لتزن فيك ما له من ذهب وفضة ، فلا مفر من أن تثقل موازين فرحكم وحزنكم أو تخف .

صفحة رقم 32

وعند ذلك تقدم إليه بناء ، وقال : حدثنا عن

البيوت

فقال المصطفى :

لتبن بخيالك خميلة في الخلاء ، قبل أن تقيم دارا وراء أسوار المدينة ؛ فكما تعود إلى دارك مع الغسق كل مساء ، كذلك الهائم الطوّاف فيك بثوب من أفقه البعيد وحيدا .

إن بيتك هو جسدك الأكبر ، ينمو في رحاب الشمس ، ويغفو في هدأة الليل ، ولا تخلو رقدته من الأحلام .

أفلا يحلم بيتك ؟ ومتى حلم ، أفلا يهجر المدينة إلى الخميلة أو إلى قنة الجبل ؟

* * *

ليتني أستطيع أن أجمع بيوتكم كلها في يدي ، فأنثرها كما ينثر الزّارع حبه بين السهل والغاب .
تمنيت لو أن طرقاتكم أودية ، ومسالكم مروج خضر ، فيسعى كل منكم بني الكروم إلى صاحبه ،
وتعودوا وقد علق عبير الأرض بثيابكم .

صفحة رقم 33

ولكن لم يحن أوان ذلك بعد ؛ فقد تملك الخوف قلوب أسلافكم ، فحشروكم حشرا . وليبقين هذا
الخوف إلى حين ، وإلى حين ستبقى أسوار مدينتكم حوائل بين بيوتكم وحقولكم .
ألا خبروني يا أهل أورفاليس : أي شيء يعمر هذي البيوت ؟ وما الذي تحرسونه بأبوابكم الموصدة ؟

أعندكم الأمان ؛ ذلك الحافز الوداع ينم على قوتكم ؟

أعندم الذكريات ، تلك الأحناء الواهجة التي تعقد بين ذرى الأفكار ؟

أعندكم الذكريات ؛ تلك الأحناء الواهجة التي تعقد بين ذرى الأفكار ؟

أم عندكم الجمال يسمو بقلوبكم من أفق الأشياء التي سويت من خشب وحجر إلى الجبل المقدس ؟
حدثوني ، أتعمر هذي الأشياء بيوتكم ؟ أم أنكم لا تملكون في رحابها إلا ترف النعيم والصبوة إليه ؟
تلك الصبوة التي تتسلل خفية إلى بيوتكم ، تنزل ضيفا ، ثم تصبح مضييفا فسيدا ؟

صفحة رقم 34

ثم تنقلب مروضاً يحرك الأنشطة والوسط ، فيجعل أمانيكم العراض ألعيب تحركها يداه .
أجل ، إن لعب بيدناعمة كالحرير ، فله قلب من حديد . يهددكم حتى تتاموا ، وليس له من مأرب
إلا أن يقف بجوار فراشكم ، هازئاً بحرمة أجسادكم .
ثم يسخر من حواسكم الراشيدة ، ويلقي بها كأنها هش الأواني بين الصخور الشائكة .
لعمري إن الصبوة إلى النعيم تطفئ جذوة الروح ، ثم تسير ساخرة في جنازتها .

* * *

أما أنتم يا أبناء الفضاء الذين لا تطمئنون حين تحل الطمأنينة ، فإنكم لن تقعوا في الشرك ، ولن
يجدي معكم ترويض .

ولن تكون بيوتكم أبداً مرساة بل ستبقى سارية ، ولن تكون غشاء متوهجا جرحاً ، بل جفنا يحرس
العين ،

صفحة رقم 35

ولن تطووا أجنحتكم لتمرّوا من الأبواب ، تحنوا رؤوسكم خشية أن تصطدم بالسقف ، أو تمسكوا
أنفاسكم خشية أن تتصدع الجدران وتهوي .

لا ، لن تقطنوا قبورا شيدها الموتى للأحياء .

ولتبقين بيوتكم ، على الرغم من جلالها وبهائها ، أعجز من أن تحفظ سرّكم أو تأوي أشواقكم ، فإن
غير المحدود فيكم يقطن " مملكة السماء " ، بابها ضباب الصباح ، ونوافذها أناشيد الليل وسكينته
.

صفحة رقم 36

وقال النساج : حدثنا عن

الثياب

فأجابه المصطفى :

إن ثيابكم تحجب من جمالكم الكثير ، لكنها لا تُخفي ما قبح فيكم .

وإنكم ، وإن تشدوا في الثياب حرية الخلوة بأنفسكم ، لتجدون فيها رسنا وقيدا .

ليتكم تستطيعون أن تستقبلوا الشمس والرياح بمزيد من جلدكم وقليل من ملابسكم ، فإن أنفاس الحياة
تكن في أشعة الشمس ، ويد الحياة تجري مع الرياح .

* * *

يقول بعضكم : " إن الثياب التي نرتيدها نسجتها ريح الشمال " .

وأنا أقول : أجل كانت ريح الشمال ، لكنها نسجتها بنول من العار وأوتار من العضل الواهن

صفحة رقم 37

وما إن فرغت منها حتى انطلقت ضاحكة في الغابة .

فلا تنسوا أن الاحتشام درع يقيكم من نظرات أهل الدنس ،

فإذا زال الدنس فأى شيء يبقى من الاحتشام ، سوى أن كان قيذا ومفسدة للعقل ؟

ولا تنسوا أن الأرض تلتذ بلامسة أقدامكم العارية ، وأن الرياح تنتشوق إلى مداعبة شعورك
المرسلة.

* * *

صفحة رقم 38

وقال تاجر : حدثنا عن

البيع والشراء

فقال المصطفى : إن الأرض تؤتيكم ثمارها ، فتكفيكم الحاجة لو عرفتم كيف تملأون منها أكفكم .

فإن أنتم تبادلتم نعمها نلتهم الوفرة والرخاء ، وطابت بذلك نفوسكم ،

فإن لم يجر بينكم التبادل بالحب والعدل الرفيق ، شرهت فيكم نفوس وجاعت أخرى .

* * *

وأنتم أيها الكادحون في البحاري ، وفي الحقول ، وفي الكروم ، حين تلقون في السوق النساجين
والخزافين ، وتجار التوابل ،

ابتهلوا إلى روح الأرض الوهابة أن تحل في وسطكم ، وتبارك موازينكم ومعاملاتكم مثقالا بمثقال .
ولا تسمحوا للمطففين أصحاب اليد الشحيحة بالمشاركة في معاملتكم ، فيبيعوكم أقوالهم نظير
أعمالكم .

صفحة رقم 39

ولتقولوا لأمثال هؤلاء :

" تعالوا معنا إلى الحقول ، أو امضوا مع رفاقنا إلى عُرض البحر واطرحوا شباككم ؛
فإن سخاء الأرض والبحر سيفيض عليكم مثلما يفيض علينا " .

* * *

فإذا وافاكم هنالك المغنون والراقصون والزَّامرون فاقتنوا أيضا مما يتحفون ؛
لأنهم مثلكم يجمعون ثمارا وبخورا ، ولئن كان ما يحملونه إليكم نسيج أحلام ، فلهو الكساء لأرواحكم
والغذاء .

* * *

وقبل أن تغاروا السوق ، احرصوا على ألا يتركها أحد صفر اليدين ؛
فإن روح الأرض المهيمنة لن تتوسد جناح الريح وادعة حتى ينال أدناكم كفايته .

* * *

وانبرى عندئذ قاض من قضاة المدينة ، وقال حدثنا

الجريمة والعقاب

فقال المصطفى :

حين تنطلق أرواحكم هائمة فوق الرياح ، هنالك تخلون بأنفسكم ولا رقيب ، فتخطئون في حق الناس ومن ثم في حق أنفسكم .

ولن تكفروا عن هذه الخطيئة إلا إذا طرقتم باب أهل النعيم المباركين ، وصبرتم إلى حين لا يحفل بكم أحد .

* * *

إن ذاتكم النورانية لكالبحر المحيط ؛ إلى الأبد تظل نقية ، مبرأة من الدنس .

وكالأثير لا ترفع إلا ذا الجناح .

بل هي كالشمس ، ذاتكم النورانية ؛ لا تعرف مسارب الخلد ، ولا تسعى إلى جحور الأفاعي

ولكن هذه الذات النورانية لا تقيم وحدها في كيانكم .

فقدر كبير فيكم لا يزال إنسيا ، وقدر كبير لم يصبح بعد إنسيا ، إنما هو مسخ لا شكل له ، يسير غافيا في الغمام ، باحثا عن يقظة نفسه .

ولأحدثكم عن الإنسي فيكم :

إنه هو وحده - لا ذاتكم النورانية ، ولا المسخ الهائم في الغمام - يعرف الجريمة وعقابها .

* * *

ما أكثر ما سمعتكم تتحدثون عن أذنب من بينكم وكأنه ليس منكم ، بل غريب عنكم ، دخیل على دنياكم .

أما أنا فأقول لكم إن التقي والصالح لا يمكنه إن التقي والصالح لا يمكنه أن يتسامى على أرفع ما يكون في نفس كل منكم ،

كذلك الفاسق والمتخاذل ، لا يمكنه أن يهبط دون ما هو فيكم أيضا .

وكما أن ورقة الشجرة لا تصفر إلا بعلم كامن من الشجرة كلها ،

صفحة رقم 42

كذلك الآثم يأتي الخطيئة إلا بإرادة مستترة منكم جميعا .

كانكم معا تسيرون في موكب ، تتشدون ذاتكم النورانية ؛

ذلك أنكم السبيل ، وأنتم أيضا سالكوه .

ولئن سقط أحدكم ، سقط من أجل من يسرون خلفه ، فيكون نذيرا لهم يجنبهم حجرة العثرة .

أجل ، إنه ليسقط أيضا من أجل من تقدموه ، أولئك الذين لم يطرحوا حجر العثرة ، وإن كانوا أشد منه
سرعة وأثبت قدما

* * *

وأقول لكم أيضا ، وإن بدت كلماتي ثقيلة على قلوبكم :

إن القتل ليس بريئا من جريمة مقتله ، والمسروق لا يسلم من اللوم على ما سرق منه .
والصالح لا يخلو من الذنب على ما أتاه الأشرار ، وطاهر اليد لا ينجو من رجس الأثيم .

صفحة رقم 43

أجل ، كثيرا ما يكون الجاني ضحية المجني عليه .
وما أكثر ما يحمل المدان أوزار من بريء من الذنب واللوم .
فإنك لا تستطيع أن تفرق بين العادل والظالم ، ولا بين الخير والشرير ؛ يقفان معا في وجه الشمس ،
كما يتشابك الخيط الأسود والخيط الأبيض لحمة وسدى .
فإذا انقطع الخيط الأسود اختبر النساج المنسوج كله ، واختبر أيضا مجرى النّول .

* * *

وإن أحكم ساق إلى ساحة القضاء زوجة خائنة ، فليضع قلب زوجها أيضا في الميزان ، وليسبر
روحه بالمقاييس .

ومن أراد منكم أن يجلد الجاني فليمتحن سريرة المجني عليه .

صفحة رقم 44

وإذا شاء أحدكم أن ينزل العقاب باسم الفضيلة ، ويهوى بالفأس على شجرة الشر ، فليتأمل جذورها ،
ولسوف يرى جذور الخير والشر ، والمثمر والمجدب ، متواشجة في قلب الأرض الساكن .
وأنتم أيها القضاة ، يا من ينشدون العدالة ، أي حكم تصدرون على من برئ جسده وأثمت سريرته ؟
وأي قصاص هذا الذي تنزلونه ممن ذبح جسدا ، وهو نفسه ذبيح السريرة ؟
وكيف تحاكمون من تتسم فعالة بالخدیعة والعدوان ، وهو نفسه قد حل به ظلم وانتهكت عنده حرمانات ؟

* * *

وكيف تعاقبون من فاق تأنيب ضميرهم ما قدمت أيديهم من سوء ؟
أليس تأنيب الضمير هو العدالة يقيمها هذا القانون نفسه الذي يطيب لكم أن تكونوا من سدنته ؟

صفحة رقم 45

على أنكم لا تستطيعون أن تقرضوا صحوة الضمير على البريء ، ولا أن تنزعوه من قلب المذنب .
بلا استئذان يهتف بالليل ، فيوقظ الخلق ليتفحصوا طواياهم .

وأنتم يا من تتحرون العدالة ، كيف يتأتى لكم ذلك ، ما لم تتدبروا الأفعال كلها في وضح النور ؟
هنالك فحسب تتبينون أن الصالح والطيالغ ليسا إلا شخصا واحدا يقف في السحر بين ليل من ذاته
الممسوخة ونهار من ذاته النورانية ،

وأن حجر الزاوية في المعبد ليس أسمى من أدنى حجر في الأساس .

صفحة رقم 46

وهنا قال له محام : وما الرأي أيها المعلم في

قوانيننا

فقال المصطفى :

إنكم لتبتهجون حين تسنون القوانين ، ولكن يزيد ابتهاجكم حين تخرجون عليها . كالصبية يلعبون على شاطئ المحيط ، فيقيمون في مثابرة من الرمال بروجاً ، ثم يقوِّضون أركانها ضاحكين . ولكنكم حين تقيمونها يأتي المحيط بمزيد من الرمال إلى الشاطئ ؛ وإذ تهدمونها يشارككم المحيط ضحكاتكم .

ولعمري إن المحيط يشارك البريء ضحكاته أبداً .

* * *

ولكن ما يكون شأن أولئك الذين لا يرون الحياة محيطاً ، ولا القوانين التي وضعها البشر بروجاً من رمال ؟

بل يرون أن الحياة صخرة ، والقانون إزميل يسوون به الصخرة تمثالاً على صورتهم .

وما يكون شأن المقعد وهو على الراقصين حاقداً ، وشأن الثور يعشق نيره ، ويخال ظبي الغاب
ووعلاها في تيه وشرود ؟

وشأن الأفعى شاخت وعجزت عن تغيير جلدها ، فرمت كل من عداها بالعري وخلع الحياء ؟ وما
يكون شأن من يأتي إلى وليمة عرس مبكراً ، حتى إذا تخم مضي قائلاً إن جميع اللواتم انتهاك
للشرائع ، وإن كل من يشارك فيها آثم ؟

* * *

ماذا أقول في هؤلاء ، سوى أنهم واقفون كغيرهم في وضوح النهار ، لكنهم ولّوا ظهورهم للمشس ؟
لا يرون إلا ظلالهم ، وما ظلالهم إلا شرائعهم .
وهيهات أن يروا في الشمس إلا مصدراً للظلال .
وهل يكون الاعتراف بالقوانين عندهم إلا الانحناء لها وترسم ظلالها على الأرض ؟

أما أنتم يا من تواجهون الشمس في مسيرتكم ، فهيهات أن تقيدكم ظلال رسمت على الأرض وأنتم يا
من ترحلون مع الرياح ، هيهات أن تهدي خطاكم " دورة " الريح .

ولن يقيدكم ناموس صاغه البشر ليغل البشر ، إذا حطمتكم نيركم ، ولكن ليس أما سجن سواكم .

وأى ناموس تخشون إذا ما رقصتم ، ولكن دون أن تتعشروا بأغلال سواكم .

ومن ذا الذي يسوقكم إلى ساحة القضاء إذا خلعت ثيابكم ، ولم تلقوا بها في طريق سواكم ؟

* * *

يا أبناء أورفاليس ، إنكم لتستطيعون أن تكتموا صوت الطبول وترخوا أوتار القيثارة ، ولكن من منكم

له أن يأمر البلبل أن يكف عن التغريد ؟

* * *

صفحة رقم 49

وقال خطيب : حدثنا عن

الحرية

فقال المصطفى :

لقد رأيتم تخرون سجدا ، وتجلون حريتم عند أبواب المدينة ، وفي ركن المصطفى من

بيوتكم ، كشأن العبيد ، يذلون أنفسهم أمام الطاغية ، ويسبحون بحمده ، مع أنه جلادهم .

أجل ، لقد رأيتم في ساحة المعبد وفي ظل القلعة أشدكم حماسا تغلهم الحرية نيرا في أعناقهم وقيدا

في الرسغين .

وأخذ قلبي يقطر دما بين جوانحي ، لأنكم لن تكونوا أحرارا إلا إذا أضحت رغبتكم في الحرية عنانا

يكبح جماحكم ، وإلا أن تكفوا الحديث عنها هدفا تسعون إليه وإنجازا تحققون .

ولن تبلغوها وأيامكم فراغ بلهم تحملون ، ولياليكم خواء بلا حاجة تتشدون أو أسى تكابدون .

وإنكم لبالغوها حقا إذا ما أهدقت بكم النوازل والهموم فسموتم عليها ، نافضين لها ، منطلقين من قيودها .

* * *

وهيهات أن تسموا فوق هذه الأيام وهاتيك الليالي ، إلا إذا حطمت الأغلال التي ولدت مع فجر يقظتكم ، وكبّلتكم بها شمس حياتكم .

والحق أن ما تسمونه الحرية لهو أشد ما ترسفون فيه من هذه الأغلال ، وإن كانت حلقاتها تلمع في الشمس فيخطف بريقها أبصاركم .

* * *

وهل هذا الغل الشديد إلا بضعة من نفسك ، تريد أن ترفعه عن كاهلك حتى تصبح حرا ؟

فإذا كان قانونا جائرا تود أن تبطله ، فإنك أنت الذي سطرته بيدك على جبينك .

وهيهات أن تمحوه بأن تحرق كتب القوانين التي سطرته يداك ، ولا بأن تغسل جباه القضاة من حولك ، ولو غمرتهم بمياه البحر .

* * *

وإذا كان طاغية تريد أن تنل عرشه ، فاستوثق أولا أن قد تحطم العرش الذي أقمته له في نفسك ، فهل لطاغية أن يحكم الأحرار والأعزة إلا إذا شاب حريتهم الاستبداد ، وخالط عزتهم العار ؟

وإذا كان هما تود أن تخلص منه ، فإنك أنت الذي اخترته لنفسك ، ولم يفرضه عليك أحد .

وإذا كان خوفا تود أن تبدده ، فإنه يتربع في قلبك أنت ، وليس زمامه في يد من تخاف .

* * *

ولعمري إن الأمور جميعا ، مرغوبة أو مرهوبة ممقوتة أو محبوبة ، منشودة أو ممجوجة - تتحرك كلها في أعماق وجودك ، تكاد تتعاقب أبدا .

أجل إنها تتحرك في طوايا نفسك ، كما يتحرك الضوء وظله ، زوجين متلازمين .

وعندما يخبو الظل ويتلاشى ، فإن الضوء المتلبث يصبح ظلا لضوء جديد .

صفحة رقم 52

وهكذا تكون حريتكم ، ما إن تخلص من أغلالها حتى تغدو هي نسها قيда لحرية أعظم .

* * *

صفحة رقم 53

وعادت الكاهنة إلى الكلام قائلة : حدثنا عن

العقل والعاطفة

فقال المصطفى :

ما أكثر ما تكون نفوسكم ساحة قتال ، تشنه عقولكم ونهاكم على عواطفكم وشهواتكم .

وإني لأتمنى أن أحل في نفوسكم صانع سلام ، فأشيع الوحدة بين عناصركم المتنافرة ، وأرد تنافسها إلى وئام وتناغم .

لكن هيهات أن يتاح لي ذلك إلا إذا كنتم أنتم أنفسكم صناع سلام ، بل عشاقا لجملة عناصركم

* * *

إن عقولكم وعواطفكم هي الدفة والشرع لأرواحكم السارحة في البحار ، فإذا تحطمت الدفة أو تمزق الشرع ، تقاذفتها الأمواج فضلت ، أو توقفت بلا حراك وسط الخضم .

صفحة رقم 54

فالعقل إذا سيطر وحده بات قوة تقيدكم ، والعاطفة إذا تركت وشأنها

دون وازع غدت لهيبا يتلظى حتى تخدم ؛ فدع روحك تحلق بعقلك إلى ذرى العاطفة ، حتى تصدح بالنغم .

ودعها تهدى عاطفتك بالحجا ، فالعاطفة تحيا كل يوم بالبعث المتجدد ، كالعنقاء تحرق نفسها ثم تنهض من بين الرماد .

وليتكم تنتظرون إلى نهاكم وشهواتكم نظرتكم إلى ضيفين عزيزين حلا بداركم .

يقينا إنكم لن تؤثروا أحدهما على الآخر ، فإنكم إن أسرفتم في العناية بأحدهما فقدتم حب الاثنين وثقتهما .

* * *

وإذا جلست فوق التلال في الظل الرطيب لأشجار الحور البيض ، وشاركت ما ترامى من الحقول
والمروج هدأتها وصحوها ، فدع قلبك يردد في سكون : " إن روح الله تسكن في العقل " .

وإذا هبت العاصفة ، وهزت الريح العاتية أرجاء الغابة ، وأفصح الرعد والبرق عن جلال السماء ،
فدع قلبك يردد في خشية : " إن روح الله تلمح في العاطفة " .

وما دمت نفسا يتردد في ملكوت الله ، وورقة تضطرب في غابته ، فلتسكن أنت أيضا في العقل
ولتلمح في العاطفة .

صفحة رقم 56

وتحدثت امرأة قائلة : حدثنا عن

الألم

فقال المصطفى :

إن الألم الذي بكم ، هو أن يتفتق الستر الذي يحيط بإدراككم .

وكما أن نواة الثمرة تتفتق لتكشف قلبها للشمس ، كذلك الألم لا مناص لكم من أن تجربوه .

ولو استطعت أن تجعل قلبك يتهلل دائما للعجائب التي تتكشف لك كل يوم ، لرأيت أن آلامك لا تقل
روعة عن أفراحك ؛

ولرضيت بالأطوار التي تنتاب قلبك ، كما رضيت دائما بالفصول تتعاقب على حقلك ،

ولوقفت رابط الجأش ، ترقب شتاء أحزانك .

* * *

إنما أنت الذي اخترت أكثر آلامك .

إنها الدواء المر ، به يداوي مرضك طبيب خفي في نفسك ؛

صفحة رقم 57

فلتتقن إذا بالطبيب ، ولتتجرع دواءه في صمت وطمأنينة ،

فإن يده ، وإن بدت ثقيلة خشنة ، لتهديها يد حانية لا يرى صاحبها الأعلى .

والكأس التي جلبها ، وإن أحرقت شفقتك ، قد صُنعت من صلصال مزجه الخزاف الأعلى بدموعه المقدسة

صفحة رقم 58

وقال رجل : حدثنا عن

معرفة النفس

فقال المصطفى :

إن قلوبكم في صمت تدرك أسرار الأيام والليالي ، لكن آذانكم تتعطش إلى صوت المعرفة ينبعث من قلوبكم .

وكم تتمنون أن تعرفوا باللفظ ما عرفتموه دائماً بالفكر ، وأن تلمسوا بأصابعكم العُرى في أجساد أحلامكم العارية .

* * *

ونعم ما تريدون ؛ فلا بد أن يفيض الينبوع المحجوب في نفوسكم ، وأن ينطلق مهمهما صوب البحر ، وأن يتكشف لأبصاركم الكنز المنطوي في أغوار نفوسكم السرمدية . ولكن حذار أن تزنوا بالموازن كنوزكم الخافية ،

صفحة رقم 59

أو تدلوا بالعصيّ أبو الحبال لتسبروا أغوار معرفتكم ، فإن الذات بحر مترام لا يحد ولا يقاس . فإن الذات بحر مترام لا يحدو ولا يقاس .

* * *

ولا تقل : " وجدت الحقيقة " ،

بل قل : " وجدت بعض الحقيقة " .

ولا تقل : " اكتشفت سبيل الروح " .

بل قل : " وجدت الروح تسير في سبيلي " .

فإن الروح تسير في جميع السبل ؛

لا تسير في خط مرسوم ، ولا تنمو كما تنمو القصبه ، وإنما هي تتفتح كزهرة اللوتس ، أكماتها لا تحصى .

صفحة رقم 60

وهناك قال معلم : حدثنا عن

التعليم

فقال المصطفى : لا يستطيع إنسان أن يكشف لك عن شيء إلا إذا كان غافيا في فجر معرفتك .

المعلم الذي يمشي في ظل المعبد بين مريديه لا يعطى من حكمته ، بل من إيمانه ومحبه ،

فإن كان قد أوتي الحكمة حقا ، فإنه لا يدعك تلج باب حكمته ، بل يقودك على عتبة فكرك أنت .

والفلكي قد يحدثك عن فهمه للفضاء ، لكنه لن يستطيع أن يمنحك هذه المعرفة .

والموسيقي قد ينشد لك اللحن الذي عم إيقاعه أرجاء الفضاء ، لكنه لن يستطيع إعارتك الأذن التي

تلتقط الإيقاع ، ولا الصوت الذي يردده .

والعالم المتمكن من حساب الأعداد يستطيع أن يحدثك عن مجالات الوزن والقياس ، لكنه لن

يستطيع أن يقود خطاك إليها ،

صفحة رقم 61

لأن بصيرة هذا لا تعير ذلك جناحها .

وكما أن كل واحد منكم قائم بذاته في علم الله ، كذلك يجب أن يكون كل منكم

قائما بذاته في علمه بالله ، وفهمه أسرار الأرض .

صفحة رقم 62

وقال شاب : حدثنا عن

الصدقة

فقال المصطفى : صديقك هو حاجة لك قضيت ، وهو حقلك تلقي فيه البذور في حب ، وتجنني عنه الثمار في شكر ،

وهو مائدة طعامك ومدفأتك ؛ لأنك تسعى إليه بجوعك ، وتنشد عنده الطمأنينة .

* * *

وحين يفضي إليك صديقك بما يدور في نفسه لا تخشى أن تصرح له بـ " لا " ، وأن تضن عليه بـ " نعم " .

فإذا أمسك عن الكلام ، ظل قلبك يُصغى إلى حديث قلبه ؛

ففي الصداقة تتبعث الأفكار والرغبات والأمانى جميعا في صمت ، وتشارك فيها النفوس في بهجة مضمرة .

وإذا نأيت عن صديقك فلا يصيبك الأسى ؛

صفحة رقم 63

فلربما كان خير ما تحب فيه أوضح في غيبته ، مثلما يزيد وضوح الجبل للمتسلق إذا رمقه من الوادي .

وحذار أن تجعل للصدقة هدفا غير النفاذ إلى السريرة ،
فإن الحب الذي لا ينشد إلا الكشف عن أسرارهِ ليس حبا ،
وإنما هو شبكة تطرح ، فلا تُلْقَط إلا الغث الذي لا نفع فيه .

* * *

وادخر لصديقك خير ما في نفسك ؛ فإذا حُقَّ له أن يعرف ما يصيب حياتك من جزر ، فدعه يعلم أيضا ما يغمرها من مد .

وأي صديق هذا الذي لا تلتسمه إلا لثُرْجى معه أوقات الفراغ ؟
فانشد صديقك دائما لتقاسمه سويَعات الحياة المثمرات ؛
فما وُجد الصديق ليَمَلاً فراغ نفسك بل ليسد حاجتك .

صفحة رقم 64

ولتمزجن عذوبة الصداقة بالضحك والبهجة المشتركة ؛ ففي قَطر الندى الذي
يبيل دقائق الأشياء ، يطالع القلب صباحه وينتعث .

صفحة رقم 65

وقال له عالم : حدثنا عن

الكلام

فقال المصطفى :

إنكم تتكلمون حين يدب الخصام بينكم وبين أفكاركم ،

فإذا عجزتم عن أن تخلصوا إلى عزلة قلوبكم تعلقت حياتكم بشفاهم ، وانطلقت أصواتكم تلهية وإزجاء
للفراغ .

ومع أكثر كلامكم يهلك نصف تفكيركم ؛

لأن الفكر من طير الفضاء ، قد يستطيع أن ينشر جناحيه في قفص الألفاظ ، لكنه
يعجز عن أن يطير .

* * *

ومنكم من يسعى إلى من يثرثرون ؛ خشية الخُلو إلى نفسه ؛

لأن سكون الوحدة يكشف لأعينهم خفايا ذواتهم العارية فيفرون منها .

ومنكم من يتحدثون ، فيكشفون بلا علم أو روية عن حقائق يفوتهم معناها .

صفحة رقم 66

ومنكم من لقنوا الحقيقة في أعماقهم ، لكنهم يأبون أن يفصحوا عنها بالكلام ،

وفي صدر هؤلاء تقيم الروح في إيقاع السكون .

* * *

إذا لقيت صديقك في الطريق أو في السوق ، فدع الروح الكامنة فيك تحرك شفتيك

وتوجه لسانك .

دع الصوت الهاتف وراء صوتك يتحدث إلى الأذن المصغية من وراء أذنه ؛

فإن روحه تحفظ حقيقة قلبك ، كما يحفظ اللسان مذاق النبيذ

يوم يُنسى لونه وتطوى كأسه .

صفحة رقم 67

وقال فلكي : أيها الهادي ، حدثنا عن

الزمن

فقال المصطفى : تودون أن تقيسوا الزمن الذي لا يُقاس ولا يُحدّ ،

وأن تُخضعوا سلوككم لمقتضى الساعات والفصول ، بل تستهّدوا بها في
منازع نفوسكم ،

وأن تجعلوا من الزمن جدولاً تجلسون على ضفافه ، وتتأملون مجراه .

* * *

لكن ما هو خالد يُدرك أن الحياة لا يحدّها زمان ،
ويعلم أن الأمس ما هو إلا ذاكرة اليوم ، وأن الغد ما هو إلا حلمه ،
وأن ما يتغيى فيكم ويتأمل لا يزال يسكن في رحاب اللحظة الأولى ، تلك
التي انتشرت فيها النجوم في الفضاء .

صفحة رقم 68

فأيكم لا يُحس أن قدرته على الحب لا تعرف الحدود ؟
ولكن أيكم لا يشعر أن هذا الحب نفسه ، وإن أفلت من الحدود ، مضموم
في صدر وجوده ، لا يخرج من فكرة حب إلى أخرى ، ولا من مسعى حب إلى آخر ؟
أليس الزمن كالحب نفسه ، لا ينقسم ولا يُقاس ؟

* * *

فإذا تراءى لكم أن تقسموا الزمن إلى فصول ، فاجعلوا كل فصل يحيط

بالفصول الأخرى جميعاً ،

ودعوا الحاضر يعانق الماضي بالذكرى والغد بالحنين .

صفحة رقم 69

وقال شيخ من أهل المدينة : حدثنا عن

الخير والشر

فقال المصطفى :

عن الخير فيكم أستطيع الحديث ، لا عن الشر .

وهل الشر إلا خير أضناه ما كمن فيه من جوع وظمأ ؟

لعمري إن الخير إذا جاع التمس الطعام ولو في الكهوف المظلمة ، وإذا عطش روى ظمأه ولو من المياه الآسنة .

* * *

أنت خير إذا ثبت على مبدأ واحد مع نفسك ،

لكنك لا تصبح شرير إذا أنت لم تفعل .

فإن البيت المنقسم على نفسه ليس وكراً للصوص ، هو بيت منقسم على نفسه فحسب .

وقد تهيم السفينة بلا دفة شريدة بين الجزر المحفوفة بالمخاطر ، لكنها لا تهوى إلى القاع .

* * *

صفحة رقم 70

وأنت خير حين تسعى جاهدا للبذل من ذات نفسك ،

لكناك لا تغدو شريرا حين تلتمس لنفسك الغنم .

وما مثلك حين تسعى إلى الغنم إلا كمثل الجذور تنشب بالأرض لترضع من أئدائها .

يقينا إن الثمرة لا تستطيع أن تقول للجذور :

" كوني مثلي ، ناضجة وافية ، تجودين دائما بما أوتيت من وفرة " .

لأن العطاء عند الثمرة حاجة ، كما أن الأخذ عند الجذور حاجة .

* * *

وأنت خير حين تتحدث وأنت في كامل يقظتك ، لكناك لا تكون شريرا حين تغفو

، ولسانك يتلعثم بلا هدف ، فلربما كان الحديث المتعثر معينا للسان عاجز .

* * *

وأنت خير حين تمضي إلى غايته ثابت العزم والخطى ،

صفحة رقم 71

لكناك لا تكون شريرا حين تمضي بخطى عرجاء .

فإن الأعرج ، على عرجه ، لا يعود إلى وراء .

أما أنتم أيها الأقوياء السراع الخطى ، فلا تصطنعوا العرج أمام الأعرج ، تخالونه
رحمة به وشفقة .

* * *

إنك لخير في أمور لا تحصى ولا تعد ، لكنك لا تكون شريرا حين يجانبك الخير .

فما أنت إلا كمن يتلكأ ويتباطأ .

ومن أسف أن الأطباء لا تستطيع أن تعلم السلاحف الخفة والسرعة .

* * *

إن الخير يكمن في الشوق إلى نفسك الشامخة ، وما من أحد منكم إلا يكابد هذا الشوق .

لكنه في بعضكم كالسيل المجتاح ، يندفع جارفا صوب البحر ، حاملا أسرار التلال
وأنشد الغاب .

وفي بعضكم كالجدول الهادئ ، يتأود في

صفحة رقم 72

المنحنيات والمنعطفات ، ويتريث قبل أن يبلغ الشاطئ .

لكن حذار أن يقول من لج به الشوق لمن قل شوقه : " فيم تريثك وتوقفك " .

فإن الخير حقا لا يقول للعريان : " أين ثوبك ؟ " ولا للشريد : " ما الذي دهم بيتك " .

صفحة رقم 73

وقالت كاهنة : حدثنا عن

الصلاة

فقال المصطفى :

أنتم تصلون إذا مسكم ضر أو أعوزتكم حاجة ، وليتكم تصلون أيضا إذا غمر
قلوبكم الفرح وعمر أيامكم الرخاء .

* * *

وهل الصلاة إلا انطلاق الروح في الأثير الحي ؟

وإذا كنتم تجدون راحة قلوبكم حين تصبون ظلمة نفوسكم في الفضاء ، فلسوف

تستشعرون المسرة أيضا حين تصبون فيه إشراقة قلوبكم .

وإذا كنتم لا تتمالكون دموعكم حين تدعوكم أرواحكم إلى الصلاة ، فسوف تحثكم

عليها مرة ثم أخرى رغم بكائكم ، حتى تفرغوا من الصلاة متهللين ؛

فإن نفوسكم لتصعد حين تصلون لتلقى أرواح أولئك الذين يصلون في اللحظة نفسها ، وهيئات أن

يتم لقاء بينكم إلا في الصلاة .

فلتحنن إذا إلى هذا المعبد المحجوب ، لا غاية

صفحة رقم 74

لكم من زيارته إلا نشوة الوجد وعذوبة الألفة ؛

لأنك إذا لم تدخل المعبد إلا سائلا ، فلن تتال حاجتك .

وإن أنت لم تدخله إلا لإذلال نفسك ، فلن تسمو لك روح ،

وحتى إذا دخلته لاستجداء الخير لسواك ، فلن ينصت لضراعتك أحد .

وحسبك أن تدلف إلى المعبد في خفاء متسترا .

* * *

وهيهات أن أعلمكم كيف تصلون بكلمات تردد ، فإن الله لا يستمع إلى كلماتكم إلا إذا

أجراها هو على شفاهكم .

وهيهات أن أعلمكم الصلاة التي تسبح بها البحار والغاب والجبال ؛

فلأنتم يا أبناء البحار والغاب والجبال قادرين على أن تلتمسوها في حنايا قلوبكم .

وحسبكم أن تنصتوا في هدأة الليل ، فتسمعوها تردد في سكون :

صفحة رقم 75

" ربنا يا روحنا المجنحة ترفرف علينا من سمائك ، إن إرادتك المائلة فينا هي التي تريد ، ورغبتك المائلة فينا هي التي ترغب ،

والحافز الذي نفحت أعماقنا به هو الذي يحول ليلنا - وهو ليلك - إلى نهار هو أيضا لك .

" ربنا إنا لا نسألك شيئا ، فإنك تعرف حاجتنا قبل أن تولد فينا ،

ولأنت حاجتنا ، ولئن زدتنا عطاء من ذاتك ، فقد أعطيتنا كل شيء " .

صفحة رقم 76

وهناك تقدم إليك ناسك كان يزور المدينة مرة في كل عام ، وقال : حدثنا عن

المتعة

فقال المصطفى :

المتعة أنشودة حرية ،

لكنها ليست الحرية .

إنها رغباتكم تتفتح أكمامها ،

لكنها ليست ثمارها .

إنها عمق ينادي العلا ،

لكنها ليست العميق ولا العليّ .

بل هي ذلك الذي احتبس في قفص ، ثم اتخذ جناحا ،

ولست فضاء تكتنفه حدود .

لعمري إنما المتعة أنشودة حرية .

ولكم تمنيت لو بها تغنيتم بملء قلوبكم ،

لكني لا أتمنى أن تفقدوا قلوبكم في الغناء .

* * *

صفحة رقم 77

إن بعض شبابكم يسعى إلى المتعة كأنها كل شيء ،

فلتلحقهم الإذانة ويحق عليهم التأنيب .

ولو كنت منكم ما أدنتهم ولا أنبتهم ، بل لشجعت مسعاهم ؛

لأنهم حين حين يجدون المتعة لن يجدوها منفردة ،

فسبع هن أخواتها ، وأقلهن جمالا أبهى من المتعة ذاتها .

ألم يأتكم نبأ الذي راح ينبش الأرض بحثا عن الجذور فاكتشف كنزا ؟

* * *

إن بعض الشيوخ منكم يذكرون المتع التي نعموا بها نادمين ، كما لو كانت

آثاما اقترفوها وهم سُكاري .

لكن الندم غاشية تحل بالفكر وليست عقوبة ، وأولى بهم أن يذكروا متعمهم شاكرين
ممتنين ، تذكرهم محصول الصيف .

فإذا لم يكن غير الندم راحة لقلوبهم ، فدعهم يلتسمون الراحة فيه .

صفحة رقم 78

ومنكم من ليسوا بشباب يسعى إلى المتعة ، ولا هم شيوخ يذكرون ،
وفي جزعهم من السعي والذكرى يتحاشون المتع جميعا خشية أن يهملوا رعاية أرواحهم أو يسيئوا
إليها

أولئك متعنهم في اطراح المتعة .

وهكذا يكتشفون هم أيضا كنزا ، وإن كان نبشهم بحثا عن الجذور بأيدي ترتعش .

لكن خبروني : من ذا الذي يستطيع أن يسيء إلى الروح ؟

أو يستطيع البلبل أن يعكر صفو الليل ، أو تسيء اليراعة إلى النجوم ؟

وهل تستطيع شعلتك أو دخانك أن يتقل كاهل الرياح ؟

أو تحسب أن الروح بركة هامة تستطيع أن تزعج صفوها بعصاك ؟

* * *

صفحة رقم 79

ألا ما أكثر ما يكون إعراضك عن المتعة ادخارا لشوقك إليها في أطواء ذاتك .

ومن يدري أن ما تتركه اليوم لا ينتظرك في غدك ؟

إن جسدك نفسه ليعلم ما ورث ، ويعلم حاجته الحققة ، ولن يخدعه عنها شيء .

وجسدك هو قيثاره روحك ،

أنت الذي تنطقها بالنغم العذب ، أو اللحن المضطرب .

* * *

ولتسائلن أنفسك الآن : كيف أميز في المتعة بين ما هو خير وما هو شر .

ألا فامض إلى الحقل والبستان ، ترى أن النحلة تجد المتعة في جني العسل من الزهرة .

لكن الزهرة أيضا تجد المتعة في أن تسلم النحل رحيقها .

فالزهرة في عين النحلة ينبوع حياة ،

والنحلة في عين الزهرة رسول حب .

صفحة رقم 80

والنحلة والزهرة يجدان في الأخذ والعطاء حاجة ونشوة .

* * *

يا أهل أورفاليس ، كونوا في متعتكم كالزهر والنحل .

وقال شاعر : حدثنا عن

الجمال

فقال المصطفى :

كيف تسعون إلى الجمال ، وكيف تجدونه إن لم يكن هو الطريق والدليل ؟

وكيف تتحدثون به إلا إذا كان هو الذي يحيك برد حديثكم ؟

* * *

يقول المظلوم ويقول المكلوم :

" الجمال رفيق رفيق ،

يسير كما تسير الأم الشابة بيننا على شيء من الاستحياء لما تحمل من فخر " .

* * *

ويقول مشبوب العاطفة :

" لا ، بل الجمال قوي مرهوب كالعاصفة تزلزل الأرض من تحتنا ، وتهز السماء من فوقنا "

* * *

ويقول المتعب المنهوك :

" الجمال همسات ناعمة تندي أرواحنا ،

ويخلد صوته إلى سكناتنا كالضوء الخافت ، يرتجف خوفاً من الظل " .

* * *

ويقول القلق :

" لقد سمعناه يهتف في شعاب الجبال ،

يلاحق هتافه وطأ حوافر ، ورفيق أجنحة ، وزئير أسود " .

* * *

وفي الليل يقول حراس المدينة :

" سيطلع الجمال مع الفجر من الشرق " .

* * *

وفي رائعة النهار يقول الكادحون وعابرو السبيل :

" لقد رأيناه يطل على الأرض من نوافذ الغروب " .

صفحة رقم 83

ويقول أسير الجليد في الشتاء :

" سيأتي الجمال مع الربيع يتوثب فوق التلال " .

* * *

ويقول الحصاد في قيظ الصيف :

" لقد رأيناه يراقص أوراق الخريف ، ولمحنا ندف الثلج في شعره " .

* * *

أجل ، لقد وصفتم الجمال بهذا كله ،

لكنكم لعمرى لم تتحدثوا عنه إلا بحاجات لكم لم تقض .

والجمال ليس حاجة بل هو نشوة .

وما هو بغم عطشان ، ولا يد ممدودة فارغة ،

إنما هو قلب مشتعل ونفس مفتونة .

وما هو بالصورة التي تود أن تراها ، ولا الأغنية التي تود أن تسمعها ،

وإنما هو صورة تراها وإن أغمضت العين ، وأغنية تسمعها وإن

سددت الأذن .

صفحة رقم 84

وما هو بعصير يكمن تحت لحاء الشجر المخدد ، ولا هو

بجناح عالق بمخلب .

إنما هو بستان لا يغيب زهره أبدا ، وكوكبة من

الملائكة أبدا تحلق .

* * *

يا أبناء أورفالييس ، إن الجمال هو الحياة ساعة

تكشف عن وجهها القدسي .

ولأنتم الحياة ، ولأنتم الحجاب .

وهو الخلود يستجلي وجهه في مرآة .

ولأنتم الخلود ، ولأنتم المرأة .

صفحة رقم 85

وقال كاهن شيخ : حدثنا عن

الدين

فقال المصطفى :

وهل حدثتكم اليوم عن شيء سواه ؟

أليس الدين هو كل عمل وكل تفكير ؟

ثم هو أيضا ما ليس بعمل ولا تفكير ، بل عجب ودهشة ، ينبعثان من النفس

دوما ، حتى حين تنحت اليد الصخر أو تدير النول .

ومن ذا الذي يستطيع أن يفصل إيمانه عن عمله ،

أو عقيدته عن شواغله ؟

ومن ذا الذي يستطيع أن ينشر أوقاته بين يديه ويقول :

" هذه لله ، وهذه لي ؛ هذي لروحي ، ولجسدي هذي ؟ "

إن أوقاتكم جميعا لأجحة تضرب في الفضاء منتقلة من نفس إلى نفس .

* * *

ومن اكتسى بفضائله ليبرز في أبهى زيه ، أولى به

أن يظل عاريا ؛

صفحة رقم 86

فإن الريح والشمس لن يثقبا له جلدا .

ومن يحدد سلوكه بقواعد الأخلاق ، يسجن طائر الصداح في قفص ؛

فإن أكثر الأغاني انطلاقا لا تتبع من بين الأسلاك والقضبان .

ومن ير في العبادة نافذة يفتحها ثم يستطيع أن يغلقها ، فإنه لم

يلم بعد بمسكن روحه ، حيث النوافذ تشرع من فجر إلى فجر .

* * *

إن الحياة التي تحياها كل يوم ، هي معبدك وهي دينك ؛

فاحرص كلما وجلتها أن تأخذ معك كل زادك :

خذ المحراث والكور والمطرقة والرباب ،

والأشياء التي هيأتها لتسد حاجتك أو لترفه عنك ؛

فإنك لا تستطيع حين تحلق في سماء أحلامك ،

أن تسمو فوق ما علوت ، ولا أن تهبط دون ما سقطت .

صفحة رقم 87

ولتصطحب معك الناس جميعا إلى الهيكل :

فلن تستطيع خلال العبادة أن تجاوز في تحليقك أمانيتهم ، ولن تهبط نفسك

إلى أدنى من مواطئ يأسهم .

* * *

وإذا أردتم أن تعرفوا الله فلا تشغلوا أنفسكم بحل الألغاز ،

بل انظروا فيما حولكم تروه يداعب أطفالكم .

وانظروا إلى الفضاء تبصروه يسير بين السحاب ، ويبسط ذراعيه

مع البرق ، ويتنزل في المطر .

سترون بسمته في الزهر ، وحين يعلو يخفق الشجر بخفق يديه .

صفحة رقم 88

وهناك تكلمت المطرا ، وقالت : هلا تحدثنا الآن عن

الموت

فقال المصطفى :

تودون أن تعرفوا سر الموت ،

فكيف تهتدون إليه إن لم تلتمسوه في السويداء من قلب الحياة ؟

إن البومة التي تبصر في الليل وتعشو بالنهار ، لا تستطيع

أن تكشف عن سر الضياء .

فإن شئتم حقا أن ترفعوا الحجاب عن كنه الموت ،

فافتحوا قلوبكم على مصاريعها لكيان الحياة ؛

لأن الحياة والموت واحد ، كما أن النهر والبحر واحد .

* * *

وفي أعماق آمالكم ورغباتكم تقبع معرفتكم الصامتة بالغيب .

وتحلم قلوبكم بالربيع ، حلم البذور مكنونة تحت الثلج .

ثقوا بالأحلام ؛ إن في أطوائها باب الخلود .

صفحة رقم 89

وما أشبه خشيتكم الموت بالعرشة تصيب الراعي في حضرة

المليك وهو يربت على كتفه تكريما له .

ألا تطيب نفس الراعي عن هذه الرعشة بما سيتقلد من سمات المليك ؟

ولكن ، ألا تراه أكثر التفاتا إلى رعشته تلك من اكترائه بما يعقبها من تكريم ؟

* * ●

وهل الموت إلا أن نقف عراة في مهب الريح ، وأن ندوب في وقدة الشمس ؟

وله تنقطع منا الأنفاس إلا يكي تتحرر من شهيقها وزفيرها المتعاقبين عليها

تصعد وتتطلق ساعية إلى الله بغير قيود ؟

* * *

هيهات أن تشدوا بالغناء حقا إلا إذا ارتويتم من نهر السكون .

وهيهات أن تشرعوا في الصعود إلا متى بلغت قنة الجبل

وهيهات أن ترقصوا حقا إلا يوم تضم الأرض أعضاءكم وأطرافكم .

صفحة رقم 90

وهنا كانت الشمس قد مالت إلى الغروب .

وقال العرافة ألمطرا :

" تبارك هذا اليوم ، وتبارك هذا المكان ، وتباركت روحك التي حدثتنا " .

فقال المصطفى : " وهل كنت أنا الذي أتحدث ألم أكن أنا أيضا مستمعا ؟ "

* * *

وهبط المصطفى درجات المعبد فتبعه الناس جميعا ،

ثم صعد إلى سفينته ، ووقف على ظهرها .

وعاد يواجه الناس ، ثم رفع صوته قائلا :

يا شعب أورفاليس ، إن الريح تهيب بي أن أفارقكم ،

فلا مفر من الرحيل ، وإن كنت أقل من الريح لهفة . إننا نحن الضاربين في الآفاق الساعين

دائما إلى أشد الطرق عزلة ، لا نستهل يوما حيث انتهى بنا غيره ،

ولا تطلع علينا الشمس حيث تركنا مغيبها .

بل إنا لفي رحلة ، حتى وإن كانت الأرض مستغرقة في رقدتها .

وما نحن إلا بذور النبات المكين ، لا تتلقفنا الريح

لنتثرنا إلا عندما ننضج وتفعم قلوبنا .

* * *

قصيرة كانت الأيام التي قضيتها بين ظهرانيكم ،

وأقصر منها كلماتي التي صبيبها في آذانكم .

فإذا ما خفت صوتي في آذانكم ، واضمحل حبي

في ذاكرتكم ، فلأرجعن إليكم ،

فأحدثكم بقلب أخصب عاطفة وشفقتين أكثر استجابة للروح .

أجل ، لأتين مع المد ،

وحتى إذا طواني الموت ولفني السكون الأعظم ،

فلسوف أسعى على مخاطبة ألبابكم .

ولن يذهب هباء مسعاي ؛

فلئن كانت الحقيقة في شيء مما حدثتكم به ،

فستكشف هذه الحقيقة عن نفسها بصوت أوضح نبرا ، وكلمات أقرب منا لا

لأفكاركم

* * *

يا شعب أورفالييس ، إنني أمضي مع الريح ، ولكني لا

أهبط إلى مهاوي العدم .

وإذا لم يكن يومنا هذا قد سد حاجاتكم ، وأشبع حبي ، فموعدنا يوم آخر ؛

فإن حاجات الإنسان تتغير ولا يتغير حبه ، كذلك لا تتغير رغبته

في أن يسد هذا الحب حاجاته .

ولتعلموا إذا أني سأعود من طوايا السكون الأعظم ؛

فإن الضباب الذي ينحسر عند الفجر ، ولا يترك في الحقول إلا قطرات الندى ، سيرتفع

وينعقد سحابا ، ثم يساقط مطرا .

وما كنت إلا كالغمام ،

أسير في طرقاتكم في هدأة الليل ، وتدلف روحي إلى بيوتكم ،

صفحة رقم 93

وثلتقي في فؤادي ضربات قلوبكم ، وتمس وجهي أنفاسكم

، فلقد عرفتمكم جميعا .

أجل ، عرفت أفراحكم وآلامكم ، وكانت أحلامكم في المنام أحلامي .

وما أكثر ما كنت بينكم كالبحير بين الجبال ،

كالمرآة أعكس ذرى نفوسكم وما انعطف فيها من

منحدرات ، أعكس حتى مواكب أفكاركم ورغباتكم .

وأقبلت إليّ في سكوني ضحكات أطفالكم تتساب انسياب الجداول ،

وأشواق شبابكم تجري جريان الأنهار ،

حتى إذا مست أعماقي ، لم تكف الجداول والأنهار عن الشدو والتغريد .

* * *

ووفاني ما هو أحلى من الضحك ، وأروع عن الأشواق ؛

ذلك الذي لا يحده شيء فيكم ،

الإنسان الشامل ، الذي لا تمثلون فيه جميعا إلا الخلايا والأنسجة .

صفحة رقم 94

أحل إنه هو الذي يغيب كل غنائكم في نشيده نبضات غير مسموعة .

إن في اتحادكم بالإنسان الشامل انطلاقا يخرج بكم إلى الشمول .

وما شاهدتكم وأحببتكم إلا حين شاهدته .

وهل يستطيع الحب أن يبلغ من الآماد ما يجاوز هذا الأفق البعيد ؟

وأي رؤى ، وأي آمال ، بل أي ظنون تستطيع أن تساميه في علاه ؟

إن الإنسان الشامل فيكم كدوحة البلوط تجللها أزهار التفاح .

يربطكم جبروته بالأرض ، ويخلق بكم عبيره في الفضاء ، ويعصمكم

دوامه من الموت

* * *

لقد قيل لكم إنكم كالسلسلة ذاتها ؛ وإذ كنتم كالسلسلة

فأنتم ضعاف كأضعف حلقاتها .

وما هذا القول إلا نصف الحقيقة ، فأنتم أيضا أقوى حلقاتها .

صفحة رقم 95

ومن يقسمكم بأقل أعمالكم شأنا ، يكن كمن يقدر جبروت المحيط بوهن زبده .

ومن يحكم عليكم بما أصابكم من إخفاق ، يكن كمن يلوم الفصول على تقلبها .

* * *

أجل ، إنكم كالمحيط ،

ومع أن السفن الجانحات المثقلات تنتظر المد على شواطئكم ، فإنكم كالمحيط

لا تستطيعون أن تتعجلوا نصيبكم من المد .

ولأنتم أيضا كالفصول .

ومع أنكم في شتائكم تتكرون الربيع ،

فالربيع الغافي في أعماقكم يبتسم في غفوته ولا يسيئه إنكاركم .

* * *

ولا تحسبوا أنني أقول هذا ليقول الواحد منكم للآخر :

" لقد وفانا حقنا من المديح ، ولم يشهد غير الخير فينا " .

فما أنا إلا محدثكم بألفاظ عما تعرفونه أنتم بالفكر .

صفحة رقم 96

وهل معرفة الألفاظ إلا ظل للمعرفة بلا لفظ ؟

إن أفكاركم وألفاظي إن هي إلا موجات تنبعث من ذاكرة

مختومة تحتفظ بسجلات أماسينا ،

وبذكريات الغابر من أيامنا ، يوم لم يكن للأرض معرفة بنا ولا بذاتها ،

وبتلك الليالي لما كانت الأرض تضطرب ويلفحها العماء بردائه .

* * *

ولقد أتاكم الحكماء يبذلون لكم من حكمتهم ، أما أنا فأنتيت لأتزوّد من حكمتكم .

وهأنذا قد وجدت ما هو أعلى شأننا من الحكمة :

إنها جذوة الروح فيكم تتزوّد دائما من ذاتها ،

أنتم في غفلة من انتشارها تتدبون أياما لكم ذوت .

إنها لحياة تستجدي حياة أجساد تخاف القبور .

صفحة رقم 97

وليس هنا من قبور ،

وما هذه الجبال والسهول إلا مهاد وأحجار توطأ للانطلاق .

فانظروا كلما مررتم بالوادي الذي أودعتم فيه

أجساد أسلافكم وتأملوا ، تروا أنفسكم وأطفالكم في حلقة رقص متشابكي الأيدي .

ولعمري إنكم لتمرّحون كثيرا وأنتم غافلون .

* * *

ولقد أتاكم آخرون واشتروا إيمانكم بالوعود البراقة ، فجازيتموهم على ما بذلوا بالثراء والسلطان

والمجد .

أما أنا فقد بذلت لكم ما هو أقل من الوعد ، وكان جزاؤكم لي أندي سخياء ،
لقد وهبتموني أحر الظمأ إلى الحياة .

ولعمري أي هبة يتلقاها الإنسان أنفس من تلك التي تجعل كل
ما يسعى إليه شفاها ظمأى ، وتجعل حياته كلها نبعا ثرا لا ينضب ؟

صفحة رقم 98

وفي هذا فخري وجزائي ،

فكلما قصدت النبع لأرتوي وجدت المياه الدافقة

نفسها عطشى ،

فإذا هي تشريني حين أشربها .

* * *

وقد ظن بعضكم أن كبرياء بي وفرط حياء ، صرفاني عن قبول الهدايا .

ولعمري إني آنف من قبول الأجور ، لا الهدايا .

فقد رحت أغتذي من توت التلال ، حين تمنيتم على أن أجلس

إلى موائدكم ،

وأنا في رواق المعبد ، وأنتم تدعونني عن طيب نفس إلى رحاب بيوتكم .

ومع ذلك ، أفلم يكن احتفاؤكم الرفيق بأيامي ولياليّ هو الذي جعل

الطعام في فمي حلو المذاق وطوق منامي بالرؤى ؟

صفحة رقم 99

ومن أجل ذلك أبارككم أطيب البركات ؛

فإنكم تعطون الكثير ولا تدرون على الإطلاق أنكم تعطون .

والحق أن الحنان الذي يتأمل نفسه في المرأة ينقلب صخرا ،

والعمل الطيب الذي ينعت نفسه بجميل السجايا يغدو للعة أبا .

* * *

ولقد دعاني بعضكم عزوفا ، نشوان بوحدتي ،

وقلتم : " إنه يأنس بأشجار الغاب ، ولا يأنس بالناس ،

ويجلس وحيدا فوق قمم الجبال ، ويشرف من عل على مدينتنا " .

ولقد تسلقت الجبال حقا وضرب في آفاق بعيدة ؛

ولكن هل كان لي أن أراكم إلا من ارتفاع شاهق أو بعد مديد ؟

وكيف يحس المرء القرب حقا إن لم يعان مرارة البعاد ؟

ومنكم من هتف بي ولم ينطق :

" أيها الغريب ، أيها الغريب ! يا عاشق الذرى المنيعه ،

لم تخذل إلى القمم حيث تبني النسور أعشاشها ؟

وما بالك تسعى إلى ما لا ينال ؟

وأي العواصف تروم إيقاعها في شباكك ؟

بل أي طيور أثيرة تقتنص في السماء ؟

تعال وكن واحد منا .

اهبط ، وسكن جوعك بخبزنا ، وارو غلتك من راحنا " .

أجل ، لقد قالوا ذلك إذ خلوا إلى نفوسهم ،

ولو كانت خلوتهم أبعد غورا ، لعلموا أنني إنما تعقبت سر أفراكم و أتراحكم

ولم أصطد إلا نفوسكم الطلقة وهي تذرع السماء .

ولكن الصياد كان الصيد أيضا ؛

فقد انطلقت كثيرات من سهام قوسي لترتد ساعية إلى صدري .

كذلك كان الطائر زاحفا على الأرض ؛

فحين بسطت جناحي في رحاب الشمس تمثل ظلها سلحفاة تزحف على الأرض .

وكننت أنا المؤمن والمستريب معا ؛

فما أكثر ما وضعت إصبعي على جرحي ، لعل إيماني بكم يشتد ، ومعرفتي

بكم تنمو تتسع .

* * *

وإني لأقول لكم عن هذا لإيمان وعن هذه المعرفة :

إنكم لستم رهناء أجسادكم ، ولا سجناء بيوتكم وحقولكم ؛

فإن ذاتكم تسكن فوق الجبل ، وتسري مع الريح .

وليست هي بالشيء الذي يزحف إلى الشمس سعيا إلى الدفء ، أو يحفر جوف الأرض في الظلام

طلبا للأمان